قصة قصيرة

من أجل المحترم أليكس...

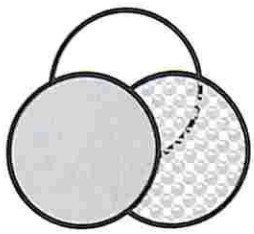

بقلم: مليكة الصوطي
المغرب

أعترف ... أنا أعترف أن كل المشاعر التي عرفتها والتي لم أعرفها طوال حياتي اعترتني وقتها : خوف ودهشة ، ورغبة في البكاء ، بل رغبة في الضحك أيضا ... كان المحقق ينظر إلي بعينين حائلتين!

– أنت متهم بتهمة الاعتداء ، والشروع في القتل !

– كلمات تسارعت من شفتي ، اختلطت بلهجتي المغربية ، وعربيتي القديمة التي اندفعت في اتجاه طبلة أذنه ، تصدى لها بعينين غرسهما في محياي ، وأنا أغالب ابتسامة من حين لآخر. حاولت وصف ظروف الحادث ، فقد كان الضباب كثيفا يجثم على المكان ، وانزلقت عجلات سيارتي عند المنحدر ، وبذلت جهدا لأتفادى إصابة روزا . ولم أنتبه إلا وهي تصرخ:

– أليكس ، أليكس ، قتلت أليكس !!

– أسفت لجرح أليكس صديق روزا ، لكن أحدا غيري لم يكن سعيدا بنجاة روزا . حتى إنها هي نفسها تمنت لو كانت المصابة ، وهو الناجي . السيدة روا ، أو روزا كما تريد أن يناديها الجميع تحببا، تعيش منذ مدة بسيطة في المنزل المجاور لمنزلي . أرملة عجوز لا أبناء لها . أعود كل مساء من العمل لأجدها على الطريق في نزهتها المسائية صحبة صديقها ، تحادثه باهتمام ، ألقي عليها التحية كعادتي مع كل جيراني ، وأتجاهله . فأنا لا أعرفه ، وأناقته المبالغ فيها ، يثير فيّ مشاعر الغيظ وأنا أراها تضاحكه . وزاد من حنقي معرفتي لاحقا بأنه يشارك روزا منزلها ، ويتقاسم وإياها كل شيء حتى إنهما يأكلان في صحن واحد . على غير عادة الأوربيين مع بعضهم بعضا، روزا تقول : إن طباعها توافقت وطباع أليكس ، فهو يعلم عنها مالا يعلمه أحد ، مستودع أسرارها . تستشيره في أمورها الخاصة والعامة ، وأبلغني جاري بيير الأرمل المتقاعد بشيء من الغيرة الواضحة في زيارتي الأخيرة له أنها أوصت بنصف ممتلكاتها لأليكس في حال وفاتها

– ساءت علاقتي بجارتي روزا ، منذ اليوم الذي تجرأت فيه على زيارة زوجتي صحبة صديقها . أذكر أنني عبرت لها عند مدخل البيت عن رفضي دخوله منزلي . طوال حياتي أمقت هذا النوع من العلاقات التي أعتبرها شاذة . خفت على فراشتي الصغيرتين ، طفلتين فضوليتين في عمر الزهور . لا أحب أن ينغرس فيهما شيء من أخلاقيات هذا المجتمع وعاداته.

يقول المحقق بلغة واثقة ، إن موقفي بات معقدا وأنا مهاجر ، أما أليكس فذو أصول أوربية أبا عن جد ، من عائلة نبيلة يعرفها كل أهل القارة . اقترب مني بهدوء هامسا

أحقا أنك لم تلق التحية عليه يوما ؟! لا تنكر ، كل أهل الحي شهدوا بذلك بمن فيهم "بيير" جارك!

لم أنكر شهادة من شهدوا بالحق ، وهذا ما زاد الطين بلة ، وحولني من مهاجر عادي أتى لهذا البلد لكسب لقمة عيشه إلى وجه معروف ، بعد أن تتالى الصحفيون على باب منزلي عند إطلاق سراحي مؤقتا . كانوا يصوبون آلات التصوير نحوي ، ويسألونني عن ظروف الجريمة ، كنت مشدوها لأسئلتهم ، لا أجيب عنها في الغالب . بعدها نقلت لأحتجز في إقامة خاصة تحت حراسة مشددة خوفا من أي اعتداء علي من قبل زعماء العنصرية الذين وصلتني تهديداتهم . أما زوجتي وطفلتاي فقد تم ترحيلهن إلى أرض الوطن . وحدي بقيت هاهنا في انتظار المحاكمة . غربة قاتلة أحرقت منابت وجودي في هذا البلد . شعرت بها بعد أن بلغني خبر تأسيس " جمعية أصدقاء أليكس " . هي جمعية حقوقية تترأسها روزا ، ضمت مسؤولين كبارا ، منهم وزراء سابقون ودبلوماسيون، وفيهم رجال من قمة المجتمع وعامته ... شيء من الغبطة والغيرة انتابني وأنا أرى أصدقاء أليكس يتناثرون في أرجاء البلاد، ويتجمعون مطالبين بإنزال أقسى العقوبات بي . إلا أنني لم أندم على أنني لم أحبه يوما . وما زلت مصرا على أن ما قمت به عندما حولت اتجاه سيارتي بعيدا عن روزا كان أفضل خيار . وهذا ما أثار الصحافة التي غيرت عناوينها الكبرى. وقد كانت في الأشهر الماضية تساير تحقيقات بشأن المتاجرة بالأعضاء الآدمية ، بعد ضبط شبكة تهريب وطنية تستورد أطفالا آسيويين خصيصا لهذا الغرض . وأصبح موضوعها الآن : سعيد العربي المهاجر ، قاتل أليكس صديق روزا !!

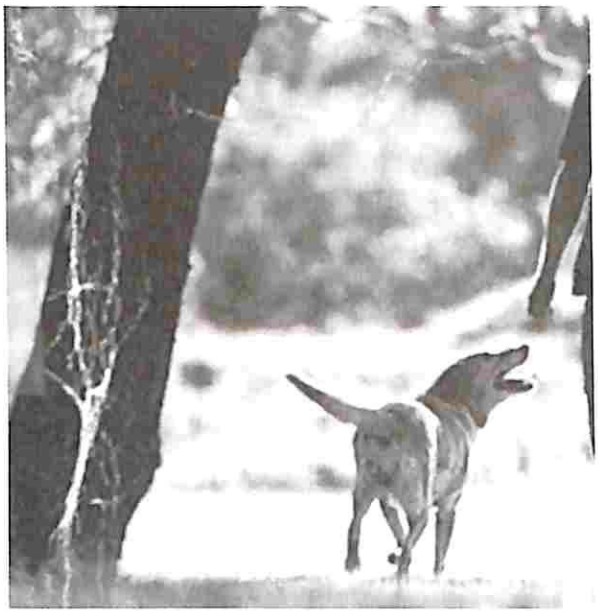

يوما بعد يوم كنت أتيقن أن ذلك الأليكس الذي كنت أظنه يوما نكرة ، كان له شأن في هذا البلد . فهاهي ذي صوره على الأكياس البلاستيكية ، وعلب المواد الغذائية التي كانت تقدم لي ، أخبرني محاميّ أن الجمعية أقامت حملة لجمع التبرعات لمعالجة الجروح التي أصابته . واستدعاء متخصصين في مثل هذه الحالات . يقولون: إنه يحتاج لسنوات عديدة لعلاج نفسه حتى يتخلص مما عاناه من ضغوط الإحساس بالتهميش والغربة واللامبالاة مني ومن أسرتي ، مما سبب تصدعا في مشاعر الجوار لديه .

إنها مؤامرة ، مؤامرة إعلامية ، بوليسية . انتهت بإجراء فحوص نفسية بأمر المحققين ، فقد ساورهم الشك في طبيعة أجوبتي وسلوكي عند التحقيق . الرغبة في إثبات براءتي وصحة أقوالي جعلتني أستجيب لكل الفحوص ، وأجيب على أسئلة الطبيب كلها إجابات واضحة . وعدني أنها ستكون سرا من أسرار المهنة ، لكنها أصبحت مدار حديث الصحافة بكثير من التأويل والتحريف .إحدى المقالات عنونها صاحبها بقوله : " الإفريقي القادم من قارة آكلة لحوم البشر" أما الآخر فقد أثر الحديث عن أصلي العربي ، وتاريخ العنف والإرهاب عند العرب من الجاهلية إلى أوائل القرن الواحد والعشرين . وربط كل ذلك بموقفي وعلاقتي بأليكس . صحفي آخر توقف عند تحليل انتمائي الإسلامي وطقوس العبادة التي تبدو متوحشة برأيه ،وتتجلى في ذبح المسلمين الخراف كل سنة بالسكاكين أمام أطفالهم بمنتهى الوحشية وفي احتفالية كبيرة ، مما يربي في الأطفال روح القتل والاحتفاء به منذ الصغر . أما الجنة فهي عندهم عالم ينتفي فيه حيوان أنيس يؤنس وحشة الإنسان هناك . الطيور البريئة نفسها تتناثر فيها لحوما مذبوحة . وهذا ما فسر لديه مواظبتي وأقراني في الطفولة على اصطياد الزرازير وشيها في مواسم الزيتون. ولم ينس الصحفي الرجم والقصاص في الإسلام ودلالة العنف فيهما . وختم مقالته متعجبا بل متقززا من كون أكلتي المفضلة هي طبق الكسكس بالحمام ، الحمام رمز السلام في العالم .

خلص الجميع إلى نتيجة واحدة ، وهي أن ماضيّ وتاريخي ومعتقداتي وحتى هواياتي كان لها انعكاس على سلوكي ، مما يفسر عدوانيتي تجاه أليكس . وتوصل الجميع إلى ضرورة إيداعي مصحة نفسية لحين شفائي . كان هذا أخف حكم توقعه محاميّ . على مضض قبلت به . أشهر طويلة انصرمت تحولت فيها حياتي إلى جحيم وأنا أقرأ في الصحف أن المحترم إليكس يمضي صحبة روزا بقية حياته . يمضيها سعيدا في منتجع سياحي على نفقة " جمعية أصدقاء أليكس " . كنت أحس بتراجع واضح ، وأنا أرى أحلامي تتحول إلى كوابيس أليكسية . أرى فيها أليكس أمامي يغيظني بحركات بهلوانية . وصل الأمر إلى حد لم أعد أطيقه حيث بدأت أشياء غريبة تتراءى أمامي جهارا ... لم أجد أمامي سوى ضرورة مفاتحة الطبيب بأعراضي.

كانت قطرات العرق تنساب على وجهي وكل جسدي ، والحرج يتملكني وأنا أخبر الطبيب أن عيني المرضة صارتا تبدوان لي ، على خلاف المعتاد و أشبه بعيني كلبة برية ، وأن مدرب الرياضة الذي يقوم على تدريب المرضى كل يوم يتراءى لي من حين لحين كلبا سلوقيا متمرسا . أشحت بوجهي عن الطبيب خجلا وأنا أخبره بأنه هو نفسه يتراءى لي كلبا بوليسيا ، وأن صوته يصل إلى أذني موجات مندفعة من النباح . خلت للحظة أنه في أحسن الأحوال سوف يطردني من المكان وسيعتبر ما أخبرته به إهانة له ولزملائه ، لكنني فوجئت به يربت على كتفي الأيسر قائلا :

سيد سعيد ، يسعدني أن أزف إليك قرب خروجك من المصحة لأنك أخيرا أصبحت مثلنا تحترم الكلاب احترامك لغيرهم من المواطنين، حتى إنها صارت تتراءى في مخيلتك في صورة الآدميين ، وهو أمر يدعو للتفاؤل . ويجعلنا نطمئن على أليكس كلب السيدة روزا وعلى كل كلاب الوطن . ■